تاريخ ابن خلدون

المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر

ملحق للجزء الأول

يشتمل على ما علّق به على غوامض أبحاثه

كاتب العصر الأكبر

الأمير شكيب أرسلان

محمد المهدي الحبابي

صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس وتطوان

وفروعها بالاقطار المغربية

المطبعة الرحمانية بمصر

شارع الخرنفش نمرة ٣٥ تليفون ٥١٥٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ابن خلدون أمة وحده

لم نعلم أحداً من العلماء والفلاسفة قبل ابن خلدون أفرد بالتآليف علم طبيعة العمران وما يسمّى اليوم بعلم الاجتماع ، برغم أن هذا العلم لم يكن من الأسرار الخفية ولا من المباحث التى لا تجول فيها أفكار الحكماء . وقد ثبت أن الفلاسفة قبل ابن خلدون لحظوا هذا العلم وأشاروا اليه فى تضاعيف مباحثهم ، ولكنهم لم يبلغوا فيه شيئاً من الإحاطة التى بلغها ابن خلدون ، ولا استقصوا فيه ذلك الاستقصاء الذى جمله فى هذا الموضوع نسيج وحده ، حتى ألقيَ إليه فيه بمقاليد الرئاسة . فهو واضع علم الاجتماع بالاجماع ، وهو الذى لم يدع منه غفلا غير معلم ، ولا وشياً غير منمنم .

قال البارون المستشرق « كارادوفو Carra de Vaux » صاحب كتاب « مفكّرى الاسلام » فى الجزء الأول من تأليفه هذا : أنجبت افريقية الاسلامية اجتماعياً من الطبقة الأولى فى شخص ابن خلدون الذى لم يعرف من قبله عالم أوتى تصوراً عن فلسفة التاريخ أصح ولا أجلى من تصوره ، فان أحوال الأمم الروحية والأسباب الطارئة عليها القاضية بتغييرها ، وكيفية تأسيس الدول ، وما تدخل فيه من الأطوار وتنوع المدنيات وعوامل نموها أو تقلصها ، كل ذلك كان من المباحث التى خاض فيها إلى أقصى ما يمكن الخوض فيه ، وذلك فى مقدمته المشهورة « Prolégomènes » ولم نجد فى أوربا إلا فى القرن الثامن عشر للمسيح أناساً حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ استخراجه بعد أن كانت أقفالا مستحجبة تعذر فتحها ، فكان ابن خلدون فى العقل والادراك من فصيلة « مونتسكيو Montesquieu » أو الأب « مابلى Mably » وهو من دون شك الجد الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين المحدثين مثل « تارد Tarde » أو المستشرق « غوبينو Gobineau » اهـ .

ثم ذكر صاحب كتاب « مفكّرى الاسلام » شيئاً عن حياة ابن خلدون وقال إن الأب « بورغيس Bargues » قدح فى ابن خلدون وأنكر عليه الثبات على وتيرة واحدة ، وزعم أن قاعدته فى السياسة كانت التحوّل من حزب إلى حزب آخر بحسب ما كانت تقضى عليه به مصلحته الشخصية ، أو اتقاؤه للضرر ، ونسى بورغيس ما كانت عليه أحوال تلك الحقبة المضطربة الذى يجب تمهيد عذر من يلجأ فيها إلى ما لجأ إليه ابن خلدون . على أن بورغيس نفسه يسمى ابن خلدون « بالمؤرخ الفيلسوف » برغم ما زنّه به من عدم الثبات .

ثم ذكر كارادوڤو كيف ذهب فيلسوفنا المشار إليه سفيراً عن سلطان غرناطة إلى « بطرة » الغاشم سلطان قشتالة فى بعض المهمات ، وكيف حاول هذا الطاغية إقناعه بالبقاء عنده ولم يحصل من ذلك على طائل ، وذكر مجيئه إلى مصر وولايته للقضاء ثم صحبته لسلطان مصر فى خروجه إلى الشام لمحاربة تيمورلنك ، ثم ما جرى بينه و بين تيمورلنك من الأحاديث وكيف أقنعه بالاذن له فى الرجوع إلى مصر توفى سنة ٨٠٨ وفق ١٤٠٦ عن اربع وسبعين سنة . وقال : إنه كان رجلا سرياً بهىّ الطلعة ، حسن الصورة والشورَة ، خبيراً بالسياسة ، عارفاً بأخلاق الملوك .

ثم قال : إن عمل هذا الكاتب العظيم كان عبارة عن تاريخ عام مجموع من كتب كثيرة ملحق بتاريخ نفيس للبربر ترجمه المسيو « دوسلان de Slane » إلى الافرنسية ، وقدّم عليه مقدمة تضمنت فلسفته السياسية . وهذه المقدمة هى فى حد ذاتها انسيكلو بيدية شاملة ، تبحث عن جميع المسائل من جهتها الفلسفية ، والتاريخ نفسه معدود فيها من جملة فروع الفلسفة .

قال ابن خلدون « إذا نظرنا إلى التاريخ من جهة شكله الخارجى وجدنا مهمته تقييد الحوادث التى تتابعت على مر الأعصار ، وتعاقب الأدوار ، مما كانت الأجيال الماضية شاهدة له ، و إنه لأجل سرد هذه الحوادث تنقحت العبارات ، وتطرّز الانشاء بحلىّ البلاغة ، و بهذا التاريخ زهت مجالس الأدب ، وتداعى اليها الناس من كل حدب ، والتاريخ هو الذى يعلمنا كيف تقلبت الأحوال على جميع الكائنات وهو الذى منه يعرف بناء الممالك ، وكيفية عمارة الأمم لهذه الأرض . كل أمة إلى

المدة المقدرة لها من الحياة ، فأما من جهة الأسرار الباطنة لعلم التاريخ ، فأعظم أسراره هو البحث عن الحوادث إلى درجة اليقين بها ، والتأمل فى الأسباب التى أنشأتها وفى كيفية جريانها وتطورها . فالتاريخ بالجملة إنما هو فرع من فروع الفلسفة ، وهو جدير بأن يجعل فى عداد العلوم الجليلة التى لها المكانة الأولى » .

فأنت ترى أن التاريخ فى نظر ابن خلدون هو عبارة عن تمحيص الحوادث والبحث عن أسبابها . وهذان الأمران يستلزمان معرفة أحوال الشعوب والبصر بطبيعة العمران ، وكان ابن خلدون يرى العمران فى زمانه قد أجحف به النقصان ، وأكدى كما أرى فيذهب إلى أن المدنيات قد أشرقت شموسها على العالم من مشارق متعددة ولكنه قد غاب الكثير منها وانطوى بدنور المعالم ، فهو يقول: إن العلوم التى وصلت إلينا هى أقل من العلوم التى لم تصل إلينا ؛ فأين علوم الفرس ، والكلدانيين ، والبابليين ، والأشوريين ، والأقباط القدماء ، فانها كلها قد ذهبت . ولم يبق من العلوم التى وصلت إلينا سوى علوم اليونانيين التى انتهت إلينا بسبب اجتهاد الخليفة المأمون فى ترجمتها وإنفاقه الأموال الطائلة عليها .

وقد عقّب كارادوفو على كلام ابن خلدون هذا بقوله : إن فيه شيئا من المبالغة لأنه قد وصل إلى المسلمين أشياء لا تنكر أهميتها من معارف الفرس ، والهنود واليهود . ولكنه على كل حال كلام يدل على سعة عطن ابن خلدون من جهة العلم بالمدنية البشرية .

ثم إن ابن خلدون يتكلم عن الاجتماع البشرى فيقول : إن أساس الاجتماع الانسانى إنما هو ضعف الانسان منفرداً بنفسه ، فانه إذا عاش وحده فلا يكون مليئا بالقيام كما يلزم له من أجل قوام معيشته ، بل لو عاش وحده لما قدر أن يثبت فى وجه حيوان واحد من الوحوش المفترسة . ثم إن الاجتماع يستلزم السلطان الذى هو فى الحقيقة عبارة عن وازع يزع اعتداء الناس بعضهم على بعض ، فلا بد فيما بينهم من سلطة متينة كافية لردع اعتداء المعتدين ، فهذا فى الأصل هو منشأ السلطان قال : وهذا غير محصور فى الآدميين ؛ بل هو يوجد فى الحيوانات أيضاً ، فقد تحقق عند بعضها مثل النحل والجراد ، وغيرهما ؛ وجود رئاسة عليا ينقاد إليها أفراد ذلك النوع ، ويكون لصاحب

تلك الرئاسة امتياز فى الشكل أو بسطة خاصة فى الجسم . والفرق بين الانسان والحيوان هو أن الحيوان ينقاد إلى تلك الرئاسة بمجرد غريزة مركوزة فى فطرته ، وأن الانسان ينقاد إلى هذه الرئاسة بناء على تفكّر وروية .

وقد أطال ابن خلدون البحث فى تأثير الأقاليم بطباع البشر ، وأورد على ذلك الأمثال ، واستخلص منها أن الأقاليم المعتدلة أحسن الأقاليم سكانا ، بخلاف الاقاليم الأول والثانى والسادس والسابع فان أهلها يسكنون فى بيوت من القصب أو الطين وأكثر طعامهم من الذرة أو الحشائش ، وهم فى الغالب عراة الأجسام وإذا اكتسوا فانما يخصفون على أبدانهم من ورق الأشجار . فأما الأقاليم المتوسطة فأهلها عندهم مزية التعديل فى الأمور واتخاذ الأليق من التدابير ، والأليق من مظاهر الحياة . وعندهم العلوم والصناعات والأمر والنهى ، والنظام والملك ، وفيهم ظهر الأنبياء وتأسّست الدول والممالك ، وسُنّت القوانين ، ووضعت العلوم ، وتشيّدت الأمصار وغُرست المغارس ، وحُرثت المحارث ، وتولّدت الصناعات النفيسة ، وترفّهت المعيشة ، وإنما الأمم التى تنسب إلى هذه الأقاليم هى العرب ، والرومان ، والفرس والاسرائيليون ، واليونان ، والهند ، والصين .

وقد أمعن ابن خلدون فى البحث عن أسباب اختلاف المشارب والأذواق فى البشر ، فهو يتساءل لماذا الزنوج مثلا تغلب عليهم الخفة والطرب ؟ وقد بحث عن ذلك من قبله المسعودى صاحب التاريخ المسمى «مروج الذهب» فقال : إن هذا يوجد عند الأمم التى يسهل عليها القوت ، بعكس الأمم التى تضرب فى المناطق الباردة التى لا يسهل فيها إيجاد الغذاء . وضرب ابن خلدون مثلا مدينة « فاس » فقال : إنها لكونها محاطة بالبلاد الباردة تجد الواحد من أهلها سائراً وهو مطرق رأسه فى الأرض يظهر للناس أنه حزين ، وذلك من شدة تفكّره فى العواقب ، وقد يبلغ فيهم الاحتياط للمستقبل أنهم يخزنون الحنطة اللازمة لهم إلى مدة سنين ، وهم مع ذلك يذهبون كل يوم إلى الأسواق لابتياع لوازم معيشتهم ! ! ثم قال : إن لأنواع الأطعمة تأثيرات متنوعة فى طباع البشر ، فمن الأقوام من يعيشون فى أرضين دارّة بالخيرات ، وتتوافر لديهم الآلات ، فتكثر عندهم الحبوب والثمار ، بينما غيرهم يقلّ عندهم هذا النوع من

القوت فيكتفون لأجل معيشتهم بلحوم المواشى وألبانها ، وتقلّ عندهم الأخلاط . قال : و إن قلّة الأخلاط تزيد الناس بسطة فى العلم والجسم . فأجساد هؤلاء الشعوب أنعم وأقوى ، وأكثر تناسبا ، وعقولهم أسمى وأسرع استنتاجاً ، وأذهانهم أشد لحظاً وثقوباً .

فالقناعة عند ابن خلدون وشظف العيش هما من أحسن الفضائل التى يكمل بها الانسان . وهذا الفيلسوف غالب عليه الافتتان بسذاجة المعيشة ، و برغم أنه كان مترفاً متبحراً فى العلوم ، عارفاً بقدر الصناعات ، تراه يحمد دائماً معيشة البداوة ، ويراها أقرب إلى الطبيعة البشرية ، وهو يقول : إن البداوة أصل ، والحضارة فرع و إن الأمصار إنما عمرت بأهل البادية ، و إن هؤلاء هم أحسن أخلاقاً من أهل المدن لأنهم يحمون أنفسهم بأنفسهم . والحال أن أهل المدن ينغمسون فى النعيم و يتركون لولاة المدن مهمة حماية أنفسهم وأموالهم ، فالمدن والحواضر تعيش فى ظلال حامياتها وأسوارها ، بينما سكان البوادى يأنفون من السكنى وراء الأسوار ، وتحت خفارة الجنود ، و يرون أنفسهم أكفاء للقيام بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم ، وهم دائماً على حذر شديد لا يعرفون النوم إلا غراراً ، لأنهم أبداً يلقون السمع حتى إذا سمعوا أقل نبأة هبّوا مستعدين لمقابلة الخطر الواقع ، وهكذا تصير فيهم هذه العادة طبيعة خامسة .

والذى يظهر من كلام ابن خلدون ، أنه كان نزاعاً إلى المجد ، ميّالا بطبيعته إلى الاستقلال وشمم الأنف ، وهو يقول : إن الشعوب لا ينبغى أن تكون على العموم سلسلة القياد ، مسرعة إلى تأدية الضرائب للملوك ، و يقول أيضاً إن القبائل التى ليس لها حظ من المدنية هى أقوم على فتح الفتوحات من غيرها ، ولقد ساق الله تعالى بنى إسرائيل إلى الصحراء وأخّرهم فى بادية التيه أربعين سنة حتى يعتادوا الاستقلال و يتمكنوا من فتح أرض الميعاد . وللدول عند ابن خلدون أعمار كأعمار البشر ، فالدولة عنده تنشأ وتشب ثم تكتمل ثم تدخل فى سن الشيخوخة — أى تهرم — ثم تأخذ بالتردّى — أى أرذل العمر — وهو يعرض للدولة ١٢٠ سنة من نشأتها إلى انقراضها وهنا قد قصّر ابن خلدون كثيراً من آماد الدول . ثم يقول : عند ما تنشأ الدول ينتقل الناس من البوادى إلى الحواضر ، و يأخذون بعادات أهلها الذين يكونون تغلبوا

عليهم . فلما تغلّب العرب على فارس ، وكانوا يجهلون مآخذ الحضارة ومنازعها ، قيل إنهم وجدوا فى مخازن كسرى أشياء لم يعرفوها ، ووضعوا الكافور في العجين مكان الملح ، ثم تعلموا دقائق المدنية شيئاً فشيئاً من الفرس ، ولكن هذه الخشونة لايطول فى العادة أمرها ، بل أولئك الذين كانوا من أبناء الصحراء تراهم ينقلبون من الخشونة إلى الترف ، ولا يلبثون أن يتأنقوا فى المأكل والمشرب ، والملبس والمفرش، والمركب واتخاذ الآنية النفيسة ، وامتهاد البسط الوثيرة ، ولأجل إيجاد هذه الأسباب كلها لم يكن لهم بد من أنواع الصناعة ، و إفنان الفنون وكلما تعددت أسباب الترف تعددت الصناعات بقدرها .

قال : و إذا أدرك الهرم دولة من الدول بدأت سلطتها المركزية بالضعف ، وأخذ حكام الاطراف بالتمرد عليها . والخروج عن طاعتها . وقال : إن تأسيس الدول سابق لتأسيس الحواضر ، وذلك لأن بناء المدن يستلزم إيجاد الصنّاع ، والعملة الذين لا مفرّ لهم من أن يفيئوا إلى ظل نظام ثابت . وهنا يتكلم ابن خلدون بكلام طويل على الصناعة والتجارة و يقول : إن تقدّم الصناعة إنما يكون على نسبة استبحار العمران و يقول : إن الصناعات المبنية على الضرورات كالحياطة والحدادة والنجارة الخ تتيسّر فى كل مكان . ولكن الصناعات التى تتعلق بالترف لا توجد إلا فى المدن التى قد زخر عمرانها ، ففيها تجد الصاغة والزجاجين والعطارين والطباخين وما أشبه ذلك . وفى المدن وحدها توجد الحمّامات التى هى من لوازم الترف ورفاهة المعيشة .

قال كارادوفو : إننا لا نقدر أن نتابع ابن خلدون فى جميع آرائه وتعليلاته العلمية للقضايا التى تلقف كرة البحث عنها ، ولكنه على كل حال كان النظر إلى فلسفة هذه المبادىء ملازماً لتحقيقاته ، وفى الغالب كان على أثر سديد وكانت له نظرات صائبة وكثيراً ما يأتى فى مباحثه بالادلة المقانع والشواهد على آرائه ، وقد يستشهد بالكتب التى يستظهر بها و يسمّيها و يذكر أسماء العلماء الذين يتوكأ على أقوالهم . فمقدمة ابن خلدون تشتمل على مباحث قيمة فى السياسة ، والزراعة ، والنجارة ، والنساجة والحياطة ، وفن البناء ، والطب ، والتوليد ، وغيرها ، وكذلك تبحث فى الموسيقى

والوراقة ، والعلوم القرآنية ، والعلوم العددية ، والجبر ، والهندسة ، والفلك ، والكيميا والمنطق ، والنحو ، والبيان ، الخ . فهذا التنقيب الذى نقّبه ابن خلدون عن تاريخ الاختراعات البشرية وأطوارها فى جميع مناحى العمران يجعل عبد الرحمن بن خلدون الكاتب الافريقى الذى عاش فى القرن الرابع عشر نداً لأعظم فلاسفة أوربا الحديثة انتهى ملخصاً .

ولنذكر الآن على وجه الاجمال مَنْ مِن الحكماء سبق ابن خلدون إلى هذه المباحث الاجتماعية ، ولو لم يكن بلغ فيها شأوه فنقول :

إن القسم السياسى من فلسفة أفلاطون يمس جانباً من فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، وكذلك يمسها من جهة ثانية القسم القضائى الحافظ للمجتمع الانسانى الكافل لانسجامه . وهو يرى أن المدنية العادلة هي « عبارة عن مجموع منتظم مؤلف من عناصر مختلفة» . وفى كتاب أفلاطون عن الحكومة الجمهورية كلام عن بداية الاجتماع البشرى يقول فيه : إن المدنيــة إنما هى وليدة الحاجة ، وهى فى الحقيقة استنباط الوسائل اللازمة الكافلة للقيام بها . وإن هذه الوسائل لا تتهيأ إلا بتوزيع الأعمال . فمتى اجتمع عدة أشخاص كل واحد منهم قادر أن يقوم بعمل يحتاج اليه الآخرون فهذه هى المدنية ، وكلما اختص الواحد منهم بشىء كان عمله له أكثر تجويداً لما يكون سبق من مرانه له . إذ المدنية ليست مجتمع أشخاص متماثلين متساوين فى كل شىء ؛ بل هى بالعكس مجمع أشخاص غير متشابهين ولا سواسية . والوظائف تزداد صعوبة كلما اتسعت رقعة المدنية وازدادت حوائجها . فبجانب الزارع مثلا يأتى المتخصص بعمل السكك الزراعية ، و بجانب أصحاب المحاصيل تأتى الطبقة القائمة بالأخذ والعطاء فى البر والبحر . وهذا إتقان للعمل و إكمال له ، ولكن المبدأ الأصلى واحد . ثم إن هذه المهن تتميز بعضها عن بعض بسمة المجتمع و يصير أصحابها طبقات متفاوتة فطبقة الصناع تشتغل بسد الحاجات المادية ، وطبقة العساكر تشتغل بالدفاع عن المدينة إذا اعتدى عليها جيرانها ، وطبقة الحراس أو الحفظة تهيمن على إجراء القوانين ، فهذه الطبقات الثلاث أى المشتغلون والجند وحفظة القوانين هم أساس كل مدنية .

و يقول أفلاطون : إنه لايجوز استغلال مدنيّةلفائدة شخص واحد ؛ و إن المقصد من بناء المدينة ليس ترفيه فرد أو طبقة ، و إنما هو إسعاد المدينة بأجمعها . فكل فرد من سكانها عليه واجب يقوم به ، فاذا قام به فهذا هو العدل . ومن رأى أفلاطون أن احتياجات المجتمع المنظم يجب أن ينظر فيها إلى طبيعة الخلق إذ مهما كان الثقاف ذا تأثير فان الأصل هو فطرة المخلوق وذلك كحب الكسب عند الصانع ، وعلو الهمة عند الجندى ، والحكمة والروية عند الحاكم .

ولأفلاطون مذهب آخر وهو : إن أقسام هذه الغرائز فى البشر هى تحت تأثير البيئات التى يعيشون بها ، فالعلوم الحسابية التى تدرّج بعض الناس إلى الفلسفة هى عند بعض الشعوب كالمصريين والفينيقيين وغيرهم زيادة فى التحيّل لا فى العلم (كذا) ولا نرى في هذا الرأى إلا تعسفاً .

و يوصى أفلاطون كثيراً باختيار ذوى الغرائز الممتازة كحب الحقيقة ، وسهولة الفهم ، وتغلب العقل على الهوى ، وشرف النفس ، والاقدام ، وحسن الذاكرة الخ .

ومن وصاياه تنظيم أعمال الوطنيين بحيث يقلد كل منهم ما هو أهل له فيجوده و يحصر حركته فى هذا العمل ولا يتجاوزه إلى غيره . و إذا تأمل القارىء فى عقلية أفلاطون الأجتماعية وجدها داخلة فى علم النفس ، وفي علم الاخلاق ، فهو يذكر الاحوال لا على ما تكون عليه فى الغالب ، بل على ما يجب أن تكون عليه .

فالأساس عند أفلاطون هو أدبى محض ، وهو قائم بتطبيق وظائف الاجتماع على القابليات الطبيعية فى البشر حتى يأتى العمل أجود ما يمكن . إلا أن أفلاطون يعتقد بأنه لا بد من اختلال النظام شيئاً فشيئاً وعند ذلك فلا مفر من التردى ؛ و يدخل أفلاطون حينئذ فى شرح كيفية الانحطاط وما ينشأ عن فساد النظام من فساد الاخلاق مما لا يلزم أن نستوفيه هنا ، لأننا لم نقصد إلا إجمالا . و إنما نذكر شيئاً ذا بال من فلسفته الاجتماعية وهو ذهابه إلى أفضل حاجز المدنية عن التردى، وأحسن وسيلة لانتظام جهود المصالح ، إنما هو تسليم زمام أمورها إلى الحكماء ، وهو على حد ما قال بعضهم : لا تبلغ المدنية السعادة إلا إذا كان الفيلسوف ملكا ، أو الملك فيلسوفاً .

ومن رأى أفلاطون أن كل صفة بشرية قابلة للتغيير بحسب البيئات والطوارىء

و إن السياسة بنوع خاص لا تنضبط تحت قواعد يجب العمل بهـا فى كل زمان ومكان . و يترتب على رأى أفلاطون هـذا أن رجل الدولة يكون أحيـاناً فوق القواعد والاوضاع .

وأما أرسطو فعنده تفسرة المدنية أنها مجمع منازل وعائلات تتوخى فى معيشتها السعادة والاستقلال . وهو يخالف افلاطون فى حصره المدنية بتوزيع الأعمال ومجرد المبادلة ، و يقول : إن الاجتماع لم يكن للحياة المجردة ، بل للحياة المرفهة ، وإن علم السياسة هو العلم الباحث عن الأسباب والشروط الـكافلة للوصول إلى هذه الغاية وهو يأتى بمباحث تاريخية عن كيفية تولد المدن والمدنيّات . ومن رأيه أن الاستقلال الزراعى هو شرط فى صحة الأخلاق ، وأنه كلما استقلت مملـكة عن غيرها فى احتياجاتها المعاشية استقلت فى أمورها السياسية والعكس بالعكس ، وكلما كثر أخذ المملـكة وعطاؤها مع الخارج ضعف استقلالها السياسى وتعرضت للحروب ، وهى حقيقة قد انطبخت حتى احترقت ، وقضية قد ابتقرت حتى انفاقت . فالأمة التى ليس لها استقلال اقتصادى هيهات أن يتم لها استقلال سياسى .

ومما يذهب إليه أرسطو أن الرق أمر طبيعى لا ينبغى التعجب منه ، وأن الطبيعة فى قسمتها البشر إلى طبقتين سادة وأرقاء ليست ظالمة ولا مستبدة . قال أرسطو : وإنه يوجد فى آسيا فى الأقاليم الحارة أقوام ذوو ذكاء وسرعة خاطر ، لـكنهم مجردون من العزم ، لذلك هم مخلوقون ليكونوا أرقاء ! وقال : إن مناخ يونان المعتدل هو المناخ الوحيد الذى يمـكنه أن يولد سلائل جامعة بين الذكاء والعزم ، فاليونانيون أحرار بحسب الفطرة قبل التربية .

ولقد بالغ أرسطو فى ذلك أشد المبالغة ورأى الناس فى رأيه هذا مجرد تسويغ وتصويب لفتوحات صاحبه الاسكندر فى الشرق .

أما اعتدال أمزجة اليونانيين باعتدال اقليم يونان فلا نزاع فيه ، ولهذا كثُر فيهم الحـكماء ، وغلبت عليهم العلوم ، وهذا شبيه بما يقوله ابن خلدون عن تأثير اختلاف الأقاليم وهو :

« الاقليم الرابع أعدل العمران ، والذى حفافيه من الثالث والخامس أقرب للاعتدال ، والذى يليهما الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال ، والأول والسابع أبعد بكثير . فلهذا كانت العلوم والصنائع والمبانى والملابس والاقوات والفواكه ، بل والحيوانات وجميع مايتكون فى هذه الأقاليم الثلاثة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألوانا وأخلاقا وأدياناً ، حتى النبوات فانما توجد فى الأكثر فيها . ولما نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الباردة الشمالية ولا الجنوبية التى فيها الحر الزائد ، وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع فى خلقهم وخلقهم » اه

هذا وأن أرسطو يرى للأسرة غاية أبعد وأسمى من الغاية الاقتصادية ، وهى أنه لا بد لكل عائلة من رأس ، وأن هذا الرأس هو الرجل الذى يدبر النفوس القاصرة أى نفوس النساء والأولاد . ومعنى النفوس القاصرة ليس أنها نفوس أرقاء ، بل معناه أنها نفوس ضعاف محتاجة إلى المعاونة . ولهذا كانت سلطة رئيس العائلة غير مطلقة على المرأة ، بل كان حكمه عليها حكم الوالى على رعيته ، وفى العائلة متوافرة جميع الشروط اللازمة لتأليف المدنية .

ثم إن أرسطو لا يعد فى الوطنيين الأحرار طبقة الصناع والأكرَة ، بل يقول إن أعمال هؤلاء خسيسة وليس عندهم من الوقت متسع لممارسة الفضيلة ، وللاشتغال بسياسة المجتمع . وهذا القول مردود من جهة شقه الأول ، وهو ممارسة الفضيلة التى تكون عند الصناع والزرّاع كما تكون عند غيرهم . ولكنه مقبول من جهة شقه الثانى وهو الاشتغال بسياسة المجتمع ، فان هذه الطبقات قلّما تشتغل بها .

وتعريف أرسطو للديموقراطية هو هذا : إنها توجد حيث يكون الرجالات الأحرار الفقراء هم القابضين على أزمة الأمور ، و إنها حيث توجد توأمين الحرية والمساواة . قال : وعكسها حكم الأَصلاَء والأغنياء . وقال : إن الفروق الكبيرة فى الثروة تؤدى إلى الحكم المطلق المنحصر فى بعض البيوتات ، وأن الغاية المقصودة من بناء المدنية هى تأمين سعادة السكان وتمكينهم من ممارسة الفضائل ، والتحلّى بمكارم الاخلاق وذلك لا يكون إلا بخضوع الجميع للقوانين . وهذه القوانين لا تنفذ جيداً إلا ببعض

شروط اقتصادية لامناص منها مما يعود بترفيه الطبقات الوسطى التى لاتقدر أن تعيش إلا من كسب أيديها . فهى بطبيعة الحال تحافظ على حسن سير القوانين ، ولاتقصد الاجتماعات الشعبية إلاّ عند الضرورة . أما إذا وجد في المجتمع من يستغنى عن العمل ومن يعيش من رأس مال راتب لديه ، فان الديموقراطية تضعف فى مجتمع كهذا وتقوم حينئذ الأصوات والانتخابات مقام القوانين .

ولقد تكلم أبو نصر محمد بن محمد بن نصر الفارابى فى مبادىء العمران أيضا وأجاد وأفاد ونقل كارادوڤو أكثر نظرياته السديدة فى المدنيّة . ولننقل هنا ما ذكره عنه القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد الاندلسى المتوفى بعد زمن الفارابى بقرن واحد قال :

أبو نصر محمد بن محمد بن نصر الفارابى فيلسوف المسلمين بالحقيقة أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن جيلانى المتوفى بمدينة السلام فى أيام المقتدر ، فبذّ جميع أهل الاسلام فيها ، وأربى عليهم فى التحقق بها ، فشرح غامضها ، وكشف سرّها وقرّب تناولها ، وجمع مايحتاج إليه منها فى كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الاشارة ، منبهة على ما أغفله الكندى وغيره من صناعة التحليل ، وانحاء التعليم وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس ، وأفاد وجود الانتفاع بها ، وعرّف طرق استعمالها ، وكيف تصرف صورة القياس فى كل مادة منها ، فجاءت كتبه فى ذلك الغاية الكافية ، والنهاية الفاضلة . ثم له بعد هذا كتاب شريف فى إحصاء العلوم[1] والتعريف بأغراضها لم يُسبق اليه ، ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه . وله كتاب فى أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطاطاليس[2] يشهد له بالبراعة فى صناعة الفلسفة ، والتحقق بفنون الحكمة ، وهو أكبر عون على تعلّم طريق النظر ، وتعرف وجه الطلب . اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علماً علماً ؛ وبيّن كيفية التدرُّج من بعضها إلى بعض شيئاً شيئاً (إلى أن يقول) : ثم له بعد هذا في العلم الالهى والعلم المدنى كتابان لا نظير لهما ، أحدهما المعروف « بالسياسة المدنية » والآخر المعروف « بالسيرة الفاضلة » [3] عرّف فيهما بجمل عظيمة من العلم الالهى

(١) وقد طبع فى مصر حديثا (٢) وهو مطبوع فى مصر أيضا

(٣) وهو مطبوع تحت اسم آراء أهل المدينة الفاضلة

على مذهب ارسطاطاليس فى مبادىء السنة الروحية ، وكيف تؤخذ عنها الجواهر الجسمانية على ما هى عليه من النظام واتصال الحكمة ، وعرّف فيها بمراتب الانسان وقواه النفسانية ، وفرّق بين الوحى والفلسفة ، ووصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة واحتياج المدنية إلى السير الملوكية ، والنواميس النبوية . انتهى . ولكن ليس من هؤلاء واحد لا أفلاطون ولا أرسطو ولا الفارابى يُعَدّ واضعاً لعلم فلسفة التاريخ الذى هو حق ولىّ الدين أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون مفخرة المغرب بل مفخرة الاسلام كله .

ولقد كان لمحرر هذه السطور من أول ما بلغت سن الحلم ولوع خاص بمقدمة هذا العبقرى العظيم ، إلى أنى كنت أطالعها المرة بعد المرة ، وفى كل مرة أجد لها طلاوة لاتمثّل وأكشف فيها أسراراً جديدة لم تكن انكشفت لى فى الأول ، وأشرف منها على آراء طريفة ، ومباحث لطيفة ، كنت أحاول عبثاً العثور عليها فى غير هذه المقدمة التى لا تخلق ديباجتها ولا تذهب بهجتها . وكأنى استبرأت بطول الزمن الكتب العربية المعروفة فكنت أرجع فى النهاية إلى مقدمة ابن خلدون ، ولا أجد أمنيتى إلا فيها ، ولا أزال أستورى زناداً لا يلمع إلا من خلال ذلك الخاطر ، وأستسقى غيثاً لا يمطره غير ذلك العارض ، ولم يكن إعجابى بما فى كلام ابن خلدون من مبادىء سامية ، وأقوال سديدة ، وأنظار فريدة ، يعزّ وجودها فى كتب غيره من أساطين الحكمة ؛ بأقل من إعجابى ببلاغة عبارته ، ورصانة أسلوبه ، وجلالة تقريره ، حتى كأنه يخطب من فوق منبر ، ويصول فى المواضيع صولة غضنفر ، فينزل بيانه من نفوس الأدباء ــ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ــ المنزلة التى لا تعلوها منازل الأقمار ، فى أعين السّمار . فلو قرأ المتأدب مقدمة ابن خلدون متوخياً فيها مجرد الانطباع على أسلوبها فى الانشاء العربى دون أن ينظر إلى ما فيها من فلسفة عالية ، وتحقيقات سنيّة ، وعلوم جمّة ملخصة ، وحقائق ناصعة من أوضاع الوجود مستخلصة ، لكانت مقدمة ابن خلدون تكفيه عمدة فى فن الأدب ، وتغنيه عن غيرها من نفائس ما كتب العرب ، ولعل عشقى أسلوب هذا الامام فى كتابة التاريخ ، وغرامى بطريقته فى تعليل النوازل ، وتقرير طبائع العمران ، قد ترك أثراً فى ملكتى بلغ من العمق أنه

فلما كان يفارقني في طرق التعبير عن أفكاري والافضاء بجلاجل نفسي ، وخواس صدري ، إلى أن إماماً مثل السيد رشيد رضا رحمه الله حكم في المنار منذ خمس عشرة سنة بأن أسلوب كاتب هذه الأسطر كثير الشبه بأسلوب ابن خلدون . أقول هذا وإن كان المشبّه لا ينبغي أن يعطى جميع حكم المشبه به ، وكان مثلنا لا يجهل مكانه من ذلك المدى المتطاول . ولقد أولعت بهذه المقدمة شاباً وكهلا وشيخاً ، وبقيت أنظر اليها نظرة المشتاق لا تخمد السنون من جذوة غرامي بمحاسنها ، ولكني لم أكن مطالعاً من التاريخ الكبير إلا لمحات يسيره ، وربما طالعت من كامل ابن الأثير أكثر مما طالعت من تاريخ ابن خلدون بكثير ، فما زال يحز في صدري أن أقرأ هذا التاريخ قراءة مدقق وأعقد آخره بأوله عقد مستوثق ، وعُدَوَاء الأشغال تعدو عن هذه الأمنية ، وتحول بيني وبين هذا الغرض المُلِحّ ، والوجد المبرّح ، إلى أن جاءني في السنة الماضية من فاس المحروسة حاضرة المغرب أن الكتبي النبيه الساعي في نشر العلم بما أوتي من جودة الفهم « الحاج محمد المهدي الحبابي » أخذ الله بيده ، عزم أن يطبع تاريخ ابن خلدون طبعة جديدة رائقة مستوفية شروط التنقيح مطرّزة بالحواشي القيّمة اللائقة بمثل ذلك التاريخ العظيم ، مستجيداً لهذا الغرض من أدباء شباب المغرب فرقدين يقصر الشيوخ القرّح عن مداهما البعيد ، وتكاد فحول العلماء لا تحشر معهما في صعيد ، أعني كلا من المحققين الكاملين ، والجهبذين الحافلين ، السيدين محمد علال الفاسي الفهري ، وعبد العزيز بن ادريس زيّن الله بمثلهما مواسم الأدب وأمطر بغيث أقلامهما مربع العربية اذا جدَب ، فتلقيت من هذا الخبر بشرى أثلجت الصدر ، وصرت أترقب طلوع هذا الفجر بذاهب الصبر ، وبين أنا كذلك إذا بصاحب هذه الفكرة هو نفسه يريدني أن أعلق أنا أيضا على هذا التاريخ حواشي بما يعنّ لي من آراء وأنحاء متصلة بمواضيعه أخالف فيها المؤلف أو أوافقه . وأفارقه في وجهة النظر أو أرافقه ، وأبدي من النظريات العصرية في علم الاجتماع ماتتم به فوائد هذا الكتاب وتتجلى حقائقه .

وقد صادف مجيء هذا الاقتراح أنى كنت من « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » فى شغل شاغل عما سواها أكاد أنوء بها وحدها فضلا عن أن أتعداها فاعتذرت عن خوض هذا البحر العجاج وقلت : من ذا الذى يجرى مع ابن خلدون إذا أقرّ أنمُلَه على مُهْرَق ، وقد خاب من يساجل البحر الخضمّ ، ومن يزحم البحر يغرق . فما زال بى إبرام الاخوان و إصرارهم ، و إيرادهم فى هذه الحاجة و إصدارهم حتى رضيت برغم ما أنا عليه من كثرة الشواغل أن أعلّق بعض الحواشى على بعض المظان ، مجتزئاً من البحث بالمختصر المفيد ، ومكتفيا من القلادة بما أحاط بالجيد ، ولما كان قد ورد فى متن المؤلف ذكر الأمم الكبار ، ومن جملتها أمة الترك علقت تحت هذه اللفظة خلاصة صافية فى نسب هذه الأمة وأولياتها ومصايرها ، ثم لما كان لابد فى هذا النسب من الانتهاء إلى تاريخ بنى عثمان الذين تحملوا أعباء الخلافة الاسلامية ردحاً من الدهر ، دخلت فى هذا البحث وأنا على نية إجماله ما استطعت إلى الاجمال سبيلا ، فاذا بى مهما سلكت الطرق القاصدة لا أقدر أن أتخلص من هذا التاريخ إلا فى مجلّد كبير ، وكيف لا يكون ذلك وهناك دولة طويلة عريضة كانت من أعظم دول الأرض ، وشجت عروقها ، وامتدت شماريخها ، من حدود المغرب الأقصى غربا إلى بحر الخزر شرقا ، ومن أواسط أفريقية جنوبا ، إلى المانيا و بولونيا شمالا ، فكانت أيامها ملأى بالحوادث الكبار ، شاغلة ما بين دفّتى الليل والنهار ، فمضيت فيه متوكلا على الله من أول تأسيس هذه الدولة إلى بداية الحرب العالمية متوخياً فى الوصف الحد المتوسط ، متجانفا عن خطتى المفرط والمفرّط ، ولا أظن كتاباً قد وُضع فى العربية عن الدولة العثمانية على غرار هذا الكتاب ، لاسيما فى العصر الحاضر . فأما القسم المتعلق من تاريخ هذه الدولة بالحرب الكبرى فقد أرجأته إلى فرصة أخرى ، ريثما أكون عرفت ما يجب أن أملكه فى هذا الموضوع من المواد ، وأسلكه من الجواد ، والله أسأل العون والتيسير ، إنه تعالى من وراء السداد .

جنيف ٢٦ شعبان المعظم ١٣٥٥ شكيب أرسلان